مجلة (لغة – كلام) تصدر عن مخبر اللغة والتواصل- جامعة غليزان / الجزائر
ISSN : 2437-0746 / EISSN: 2600-6308
رقم الإيداع: 2015 - 3412
مصنفة ج : قرار 1432 بتاريخ 2019/08/13
http://www.asjp.cerist.dz/en/PresentationRevue/176
المجلد 07/ العدد: 02 مارس (2021) - ص 63- 72

أدب الترحال و لغة الأقلية في ملاقاة العلامة (قراءة في المشروع الأدبي لجيل دولوز)

Travel Literature and Minority Language in Meeting the sign. (Reading in the Literary Project of Gilles delleuze)

مخطاري سليمان [1] حموم لخضر [2]
[1]slimane.mokhtari.etu@univ-mosta.dz [2]lakhder.hamoum@gmail.com
مخبر الفلسفة و العلوم الإنسانية
جامعة عبد الحميد ابن باديس، مستغانم

تاريخ الاستلام: 2020/06/11 تاريخ القبول: 2020/08/30 تاريخ النشر: 2021/03/15

ملخص البحث

تهدف هذه الدراسة إلى البحث في المشروع الأدبي واللغوي لدولوز، من خلال نقده للسانيات التقليدية في صورة بنيوية دي سوسير والنحو الكلي لشومسكي وباقي المدارس اللسانية التقليدية، ونحته لمفاهيم جديدة قائمة على الترحال والهروب ولغة الأقلية كرهان لغوي مختلف يتأسس ويقوم على الإبداع كشرط أساسي لتجاوز الصورة النمطية التمثلية واستبدالها بأخرى ذات مفاهيم مغايرة كالجذمور ولقاء العلامة.

كلمات مفتاحية :لغة الأقلية، الترحال، الجذمور، العلامة.

ABSTRACT:

This study aims at researching the literary and linguistic project of Delleuze, through his critique of traditional linguistics, namely the form of structuralism de Saussure and the overall grammar of Chomsky and the rest of the traditional linguistic schools, and his carving of new concepts based on nomadism and escapism, and minority language as a different language, and new prototype founded and established on grounds of Creativity as a prerequisite for overcoming the stereotypical image and replacing it with other concepts with different meanings, such as rhizomes and the encounter of the sign.

Key words: minority language, nomadic, rhizome, sign.

[1] المؤلف المرسل : مخطاري سليمان.

1 . مقدمة:

سيكون هذا القرن دولوزيا، كان هذا ما يذكره دائما ميشال فوكو على جيل دولوز، وليس بالغريب قياسا لأعماله، فلم يكن سهلا أبدا أن يُساءل الفكر في ظل التاريخ وقبضته، إلا أن الجواب كان مرعبا حسب دولوز هو أنه إبداع للمفاهيم، ستفتح اللغة ذراعيها مع دولوز للإبداع والتعدد والانفصال عن كل أشكال التقليد الأدبي وشتى صوره، إذن المهمة الدولوزية الجديدة هي الإبداع، الذي يتماشي مع الانفصال والتخلي عن صور الفكر التقليدية التي بسطت سلطتها عليه لفترة طويلة من الزمن، تحت غطاء الذات والتطابق والتمثل شكلت عليه مصادرات ومسلمات وثوقية، فلغة وأدب دولوز بقدر ما تبنت الإبداع كمشروع عام له، هو الوقت نفسه الذي نحت فيه مفاهيم جديدة تتخلى عن كل أشكال الصور التقليدية، إذ ستكون الصورة الجديدة للفكر بدون صورة، بدون أي تمثيل، صورة جذمورية. لقد انتقد دولوز اللسانيات التقليدية الجامدة في أغلب مدارسها معتبرا أنها تمثلات وصور نمطية ذات أساس دلالي وإحالي وهذا ما يتنافى مع التصور الجديد للغة القائم على مفاهيم جديدة كالجذمور والعلامة والحدث، مقابل التقابلات الثنائية والتصور التقني للغة في إشارة إلى النحو الكلي لشومسكي والتصور البنيوي لدوسوسير، فقيمة الأدب من خلال مشروع دولوز تتجلى في ابتكاره لنشاط أدبي مختلف غير مسبوق، يبدأ من الوسط دون العودة إلى الأصول والبدايات، بلغة ذات بعد نمطي، وكأن النص مفتوح لأن يتكلم لغة مغايرة. إن سمة النزعة الفكرية لدى دولوز تظهر جليا تقريبا في كل كتاباته النقدية سواء كانت أدبية أو فنية أو فلسفية، فهو مفكر اللاحدود والسفر، ليس بمفهوم المكان والجغرافيا وإنما المفاهيم والأفكار و المعاني، أي مفكر الترحال والهروب يكتب ويفكر بطابع شبكي لا خطي. فحسب دولوز لقد سيطر على الفكر صورة شجرية، لكن دائما تحت الشجرة جذمور، في تشبيهه للجزء الذي يقطع من ساق بعض النباتات، ويعاد غرسه من جديد من أجل إنبات آخر، وهو تعبير مجازي للدعوة الى التخلص من الأصول والجذور الأولى، أي البدء من الوسط، كما يولي أهمية للعلامة بدلا من الكلمة، فالنص مكنز بالكلمات وما يغيب ويختفي هو العلامات، لذا يجب التنقيب والتفتيش عنها بغية تأويلها وتفسيرها، فالعلامات بطبعها هي أكثر مرونة من الكلمات وهي ما تمكننا من فتح النص والولوج على أفاق جديدة تظل الكلمات تعجز عن بلوغها بل ينبغي التعلم منها، لأنها هي مجال الإبداع. ففيما تكمن القيمة الأدبية واللغوية التي سعى لها دولوز؟، وماهي اللغة الأخرى أو الاقلية التي تمارس بالترحال والهروب نحو عوالم جديدة في لحظة البحث عن العلامات لملاقاتها وعناقها ؟

2 . اللغة الأخرى أو اللغة الأجنبية:

يعتبر الأدب بالنسبة لدولوز ليس مجرد تتمة لنشاطه الفلسفي الدؤوب الذي استهله في مشروعه الضخم و المتوج في " الاختلاف و التكرار " و " منطق المعنى " و " بروست و العلامات "، بل وجه

وصيغة أخرى من صيغ التعبير الإنساني، المبني على الاختلاف والتنوع الذي يضع نصب عينيه الابداع، " فاللغة الأجنبية أو الأخرى ليست بمعنى اللغة المكتوبة بلغة ثانية غير اللغة الأم "[1]

وإنما لغة ثانية غير تلك المقعدة بنظامها الصرفي والنحوي، ليست تلك الإحالية، بل لغة تهذي وتخرف، تلج في العمق. فالأديب المبدع هو الذي يجعل اللغة تثور وتخرج من جذورها وتُقتلع لتوضع في مكان آخر فتزهر وتنير.

لقد انتقد دولوز اللسانيات التقليدية الجامدة في أغلب مدارسها معتبرا أنها تمثلات وصور نمطية ذات أساس دلالي وإحالي وهذا ما يتنافى مع التصور الجديد للغة القائم على مفاهيم جديدة كالجذمور والعلامة والحدث، مقابل التقابلات الثنائية والتصور التقني للغة في إشارة إلى النحو الكلي لشومسكي والتصور البنيوي لدي سوسير. هذا الشرط الإبداعي الذي يجعل اللغة قوة وآلة حربية، تخرج عن المألوف وترمي إلى الكونية، فقيمة الأدب من خلال مشروع دولوز تتجلى في ابتكاره لنشاط أدبي مختلف غير مسبوق، يبدأ من الوسط دون العودة إلى الأصول والبدايات بلغة ذات بعد شبكي لا خطي نمطي، وكأن النص لا يتقدم خطيا وإنما يذهب في جميع الاتجاهات، إذ تتولد خلاله المفاهيم إلى أخرى مختلفة في إشارة إلى أسلوب الأقلية والجماعات الصغرى الذي حاول من خلاله أن يطبق هذا التوجه في كل مشاريعه النقدية، سواء الفلسفية أو الأدبية بالتركيز على عناصر جديدة كالصيرورة والترحال والمقاومة والأسلوب، هذا ما يفسر انبهاره بأدباء مغمورين كبروست وكافكا الذين كتبوا حسبه بلغة أخرى بديعة.

2 . 1 الترحال والهروب:

إن سمة النزعة الفكرية لدى دولوز تظهر جليا تقريبا في كل كتاباته النقدية، سواء كانت أدبية أو فنية أو فلسفية، فهو مفكر اللاحدود والسفر، ليس بمفهوم المكان والجغرافيا وإنما المفاهيم والأفكار والمعاني، أي مفكر الترحال والهروب، يكتب و يفكر بطابع شبكي لا خطي. فمفهوم الترحال والهروب لا يقل قيمة عن مفهوم الجذمور، قد استلهمه من البدو الرحل الذين لا وطن ولا مكان لهم كثيرو التحول إلى مناطق مهمشة ومغيبة، ضد الثبات والاستقرار والسلطة والتمثلات والصور النمطية، يلجؤون في كل مرة إلى التحرر من القيود ومن سطوة النظام عبر الهروب. فهذا ما جسده دولوز في كتاباته بهروبه من كل أشكال تمثلات الأدبيات واللسانيات الكلاسيكية بترحاله نحو مناطق أخرى، بابتكاره لغة مغايرة قوامها الحدث والعمق والعلامات والتأويل، فصورة المبدع تكمن في إبداعه لمناطق وأماكن جديدة، من خلال الغوص في مظاهر الحياة الأخرى كالفن و الرسم والسينما، أي على تمظهرات الذات في العالم المليء بالعلامات والإشارات التي تتطلب تأويلا دائما، فاللسانيات لا تجد في اللغة سوى ما توفره لها من نسق شجري تراتبي كلاسيكي، أي تحت سطوة اللغة الآمرة، ولكن الأجدر هو الاستغناء عن اللسانيات وعن اللغة من أجل أن " يكون الصمت أو التلعثم، هو عبارة عن خط

هروب للغة، بمعنى أن يتكلم المرء داخل لسانه الخاص كأجنبي ويجعل من اللغة استعمالا مرتبطا بالأقليات، يجب النضال ضد اللغة، وابتكار التلعثم لا من أجل الالتحاق بشبه واقع قبل-لساني، وإنما من أجل وضع خط صوتي وكتابي سيجعل اللغة تسري بين هذه الثنائيات وسيحدد استعمالا هامشيا "[2]. فالمهمة الجديدة للأدب نجدها لدى مفكرين من أمثال بروست، كافكا، جويس وآخرين، إذ يستحضرون تعابير الهروب والترحال وحقول المعارك، وهذا ما يفسر لجوء دولوز للغة الأقلية فماهي هذه اللغة؟.

2 . 2 لغة الأقلية والأدب الإنجليزي :

يلجأ دولوز لتطبيق هذا المفهوم ليس إشارة على جماعة اثنية قليلة العدد مقابل جماعة كثيرة، وإنما إخضاع اللغة للتنوع والشد " لذلك لا ينبغي أن تكون اللغة نظاما متجانسا، بل لا توازنا، فالأسلوب يعمق في القوى الكامنة ويمكن أن يمر شيء ما بين الاختلافات وأن يحدث كما يمكن أن تنبثق ومضة صادرة عن اللغة نفسها فتجعلنا نرى ونتأمل ما بقي في الظل من حول الكلمات "[3]، أي لغة لا تجعل من مبدعها يركز على تقعيداتها النحوية ولا الدلالية الإحالية، لغة يغلب عليها الإبداع والترحال عبر الأسلوب الذي يذهب بصاحبه إلى أقصى حد ممكن، الاسلوب هو ما يجعل الكاتب في لحظة لقاء بإنسانيته من خلال العيش لفكرة التحول وخلق الثقوب بداخلها عبر لغة الأقلية ويستشهد كثيرا دولوز بمفكرين في صورة جويس الايرلندي الذي كتب وقلب الإنجليزية عبر قواعدها ونحوها وإبداع لغة مغايرة من دون اللجوء إلى لغة أجنبية والذي مكن عبر مخيلته المتماهية أن يترك في رواياته نصا مفتوحا مليئا بالمعاني والعلامات، مصرحا بنفسه بأنه ترك نصا مفتوحا في روايته بوليسيس مليئا بالألغاز والأسرار، ستشغل الأساتذة مستقبلا، فإذا كان الأمر يتعلق بجويس، فالأمر لا يختلف كذلك ببيكيت وكافكا والبقية، الذين ساروا على نفس الدرب، وكما الحال لمارسيل بروست الذي يتغنى به دولوز كثيرا وعلى ضوء أدبه ألف كتابا موسوما ببروست والعلامات، متحدثا عن روايته عن الزمن الضائع، التي تبدو للقارئ أنها درس في الذاكرة والتذكر أو قيمة الزمن، في حين تعد درسا بالغا في الأهمية في قراءة العلامات والتعلم من خلال الملاقاة في لحظة غامرة تحت وطأة العنف والإرغام .

يشيد دولوز كثيرا بالأدب الإنجليزي إذ يعتبره نموذجا لأدب الأقلية والترحال، بعكس وخلاف الأدب الفرنسي المليء بالإيديولوجيات ونظريات الكتابة والنزعات والمحاكاة، فالأدب الإنجليزي هو أدب الإبداع والولوج وابتكار لأراضي جديدة مهمشة من خلال الصيرورة والكشف عن عوالم جديدة أكثر حيوية عكس الأدب الفرنسي المهتم بالجانب التاريخي، فالأدب الإنجليزي رأى في الهروب مقاومة خارقة تقتحم أراضي جديدة كحياة البدو الرحل، إذ لا ماضي ولا مستقبل لهم، يأخذون الحياة كواقع وحدث مركزين على الجغرافيا لا على التاريخ، حتى مفهوم الثورة في الأدبيات الفرنسية تتأسس على

التفكير في المستقبل وما سيصير مستبعدين اللحظة والآنية في الحياة، و هي إشارة تعكس الاختلاف الكبير ليس فقط على مستوى المفاهيم بل حت طريقة التعاطي والتعامل مع الموضوعات الراهنية التي تهمل الأكثر ضروري والحاضر في خلاف الأمور التي لم يحن دورها بعد، الأدب الإنجليزي يمثل لدولوز الواقع إذ يبين من خلال الروايات والفنون التي تعكس لغة وأدب ونمط تفكير الإنسان عبر تجارب الحياة، وتجليها عبر الثقافة الإنجليزية فروايات شكسبير أو السينما الأمريكية التي تعتبر كامتداد للأدب والثقافة الأنجلوسكسونية، تبين قيمة وبعد هذه الأدبيات في صناعة الواقع والحياة من جديد في ضوء لغة جديدة، لغة تصنع من خلال الواقع وتجربة المعيش، لتؤسس لأخرى عبر مظاهر الثقافة المختلفة.

3 . الجذمور rhizome :

مفهوم الجذمور من أمتع وأشهر المفاهيم التي نحتها وتغنى بها دولوز في المشروع الفكري الذي قدمه، وقد طبقه تقريبا في كل مؤلفاته وتصوراته الفكرية، يقوم على عدم العودة إلى الأصول والنهايات والجذور وقد جسده في شعاره " كونوا مثل الجذمور، بل جذمورات، ولا تكونوا جذورا، إن الشجرة نسب، أما الجذمور فهو خلف "[4] . حسب دولوز لقد سيطر على الفكر صورة شجرية، لكن دائما تحت الشجرة جذمور. هو جزء يقطع من ساق بعض النباتات ويعاد غرسه من جديد من أجل إنبات آخر، و هو تعبير مجازي للدعوة الى التخلص من الأصول والجذور الأولى، أي البدء من الوسط، وقد خصص دولوز جانبا مهما لمعالجة هذه الصورة الجذمورية بالاشتراك مع غتاري في دراسة العديد من الاختصاصات كالألسنية والتحليل النفسي والإثنولوجيا والأدب والسينما والسياسة، أي التركيز على الجغرافيا لا التاريخ وعلى منطق الترحال لا الاستطان والثبات، حتى في كتاباته لن تجد له استقرارا وثباتا على فكرة ما. وفي الاختلاف والتكرار نراه يمارس الارتفاع والعمق ويبحث في الشدة وانبعاثاتها وتفضيله السطح والمعنى، أي مارس الإبداع في ذلك، ففي ألف بساط يبين لنا أن الجذمور هو صورة التوليف وهو أعم منه. في تقاليد دولوز كل شيء موجود على البساط هو جذمور و توليف خاضع لهذا المنطق الحركي الظرفي أي غير خاضع لأي مثال سابق، وشكل من أشكال هذا القبيل يحيلنا إلى الصورة الوثوقية الأرثوذكسية للفكر " ولهذا الشجرة ليست نموذجا للجذمور بل العكس، لأن الشجرة في تركيبها تحيل على نظام تراتب وعلى منطق تعاقبي تاريخي "[5] وهذا المبدأ يرفضه دولوز لأنه يحيلنا على أسبقية الأصل والجذر عن اللواحق المتعلقة بالشجرة. إذن مفهوم الجذمور يمكننا من فهم الأشياء في تموضعها كل لحظة ويفرض على الفكر أن يراجع حساباته في مفاهيمه كذلك وفقا للصيرورة بإقحام الحياة في الأدب والفن والرسم.

يقدم لنا دولوز مع غتاري في المشروع المشترك ألف سهل درسا بالغا في الأهمية في التمييز بين نوعين من النظرة إلى العالم والأشياء، الأولى المتمثلة: في معنى الشجرة كصورة للعالم والثانية هي الجذمور

كتموضع ينظر إلى الأشياء من الوسط بدون معنى قبلي وأصلي، أي رؤية جغرافية أفقية لا عمودية تاريخية.

الجذمور هو جزء الشجرة وخلفها أي "يمكن لأي نقطة من جذمورها أن تتصل بأي نقطة أخرى وهذا ما يختلف عن الشجرة والجذر "[6] . دولوز لا يعترف بالأصل ويتميز هذا المبدأ بالتخلي عن الأنساق بحيث يمكن الانتقال من أي نقطة دون الرجوع والتطابق مع أي نموذج، وهذا خلافا لفكرة الشجرة ومنطقها التقليدي المؤسس على المذاهب والنظريات الكبرى، هذا المبدأ في نظر دولوز نلتمسه في لسانيات شومسكي Chomsky التي تُبنى على التقسيم الثنائي من الخلال الدال والمدلول، حيث أن الرؤية الجذمورية للغة خلافا للتفسير اللساني، بل هي مرتبطة بأنظمة السلطة والصراعات الاجتماعية والفنون والعلوم .

هذا ما يفسر لجوء دولوز لمفكرين مغمورين كباركلي Barkley وبروست Proust ، أي البحث عن نظريات أخرى مختلفة كما كان يقول بروست " تعاملوا مع كتبي مثل النظريات المصوبة إلى الخارج فإذا لم تساعدكم استعملوا نظرات أخرى، إن عليكم أن تجدوا بأنفسكم أجهزتكم التي هي بالقوة أجهزة معركة، النظرية لا تعمم وإنما تعدد ولقد تعددت"[7]، وهو ضد القطائع إذ يشبه في ذلك خط النمل في سيره، إذ خصائص التجاوز والترابط توفر له دائما الصيرورة والمسير عند كل لحظة انقطاع، مشكلة بذلك مسارات جديدة ترحالية، فالنظرة - جذر - الكلاسيكية لا تنفلت من قبضة المحاكاة والتقليد في حين نظرة – جذمور – تؤسس على الترحال déterritorialisation وإعادة التموطن والولوج إلى الأماكن الأبعد وعليه " بواسطة القطيعة والتمدد وخطوط الهروب، حيث يجب القيام بالكتابة وإنتاج الجذمور وتنمية الموطن عبر الترحال وخط الهروب "[8]. هذا الترحال قد جسد جذموريا حقيقة في ولوجه لموضوعات مختلفة ومغايرة كالرسم والفن التحليل النفسي والسينما وربطهما دائما بالعلامة كلحظة حدث وملاقاة، دون الرجوع إلى البناء والتكوين والتاريخ لتفسير تموضع الأشياء خرائطيا، إذ يعمل على تجريب الواقع وإزاحة الحواجز. كان دولوز يفضل أن يطلق على نفسه الفيلسوف الرحال (nomade) لعدم استقراره على مذهب معين وقد اقتبس هذه الفكرة من كانط " نقد العقل الخالص " لإدخاله نزعة الشك في الفكر اليوناني وهدم المقولات الراسخة في الميتافيزيقا على يد البدو أو الرحل، وحل مقولات أخرى أكثر نقدا وجرأة، تمقت التموطن والاستقرار وتؤسس للشك والترحال والهروب نحو اللاثبات، فحسب دولوز أن هذا الرباط الاجتماعي يسعى دائما إلى التوطين بوضعه مجموعة من الخطوط المتشابكة في الرحال يبحثون عن الخطوط التي تمكنهم من الهروب والترحال، هذا المفهوم الجذموري يعمل في الأدب والفن والسياسة.

4 . ملاقاة العلامة :

أكبر رهان أخذه دولوز على عاتقه، هو كيفية بلورة لغة جديدة تحل محل مقولات التمثيل، أو كيف يمكن إرساء لغة غير تلك الصورة الوثوقية للفكر، فلم تعد اللغة على شاكلة النموذج اللساني، فقد أصبحت مع دولوز حدثا ونظاما جذموريا من العلامات. فنظريته في اللغة تسعى إلى تجاوز هذا التصور اللساني التي مارسته المدارس اللسانية القائمة على التمثلات، ويعتبرها فقط غاية في التواصل والتعبير بين الذوات. لقد سعت اللسانيات جاهدة أن تقدم اللغة في صورة علمية تقنية من خلال جعل الخطاب عالمي على حسب شومسكي، إلى أنها الوقت الذي قتلت فيه اللغة وسقطت في الدوغمائية التمثيلية. إن جهد دولوز تمثل في قلب المفاهيم الثنائية والتقابلات الدلالية اللسانية، إلى أخرى قائمة على الحدث والعلامة والملاقاة، " فاللغة تتكون في العمق، كما كل شيء من جملة علامات "[9]. أي ليست دوالا تحيل دائما إلى الأشياء فهي ضد التمثيل، إنما هي علامات تستوجب تأويلا متجددا كل مرة ولا ترجع إلى ذاتها بل في علاقتها مع المضامين في لحظة لقاء. ليست اللغة مما تقدم ثنائيات وتقابلات بين الدال والمدلول، بل هي تواصل ولقاء بين الكلمات و الأشياء والذات والعالم والفعل والانفعال تحت غطاء المعنى، إذن سوف ينتقل الأمر إلى منطق جديد إذ تؤسس العلاقات ليس على الإحالات بل إلى المعنى الذي هو أعمق خلافا للتصورات السابقة التي كانت ترجع في كل عملية تفسير بين الدال والمدلول إلى أصل و جذر. فالموازين ستتغير وتأخذ منطق الجذمور، إذ ستصبح العلامة كحدث لقاء إذ يتوجب تأويلا لتلك العلامات بدون أي نموذج أو إحالة في اللغة. يعطينا دولوز درسا مهما في اشتغاله على رواية بروست "البحث عن الزمن الضائع " إذ يولي أهمية للعلامة بدلا من الكلمة، فالنص مكنز بالكلمات وما يغيب ويختفي هو العلامات، لذا يجب التنقيب والتفتيش عنها بغية تأويلها وتفسيرها، فالعلامات بطبعها هي أكثر مرونة من الكلمات، وهي ما تمكننا من فتح النص والولوج على أفاق جديدة، تظل الكلمات تعجز عن بلوغها بل ينبغي التعلم من العلامات، لأنها هي مجال الإبداع حيث " لا يمكن للإنسان أن يكون نجارا ما لم يكن له إحساس اتجاه علامات الخشب، ولا يستطيع أن يكون طبيبا ما لم يكن يملك إحساسا بعلامات المرض، إن الموهبة استعداد أولي اتجاه العلامات وأن يكون حساسا "[10].

فهذا الاندفاع نحو العلامة هو بدافع إرغامي يشير إليه دولوز كاستعداد أولي للمبدع أمام إبداعه، والنص كذلك يحمل في ثناياه ما يستدعي اللقاء والعناق في لحظة دراماتيكية تستوجب الحضور الكامل توقيع المبدع. إن هذا اللقاء المتوج بلقاء العلامة قد بلور حقيقة من تجربة معيش دولوزية بامتياز، فالمرحلة الأولى من حياته كان اهتمامه منصبا على قراءة تاريخ الفلسفة وكأنه نصا على شاكلة النصوص المؤلفة، ثم جاءت مرحلة الاهتمام بمفكرين مغمورين كبروست فكانت كعلامة،

يجب التمعن فيها وتأويلها، فالمتمعن في مسيرة دولوز الفكرية يدرك حقا أن تجربته ونظرته كانتا على درب واحد عيشا و تنظيرا، هذا ما كان دولوز للإبداع عنوانا.

كان الاهتمام كبير جدا بالتداوليات لدى دولوز اذ هي اللسانيات الحقيقية حسبه، أولا لكونها تستلف معياريتها دون قصدية ولا ذات مسبقة، وثانيا كونها " تصير ما يدخل الحياة في اللغة ولا تعتمد في عملية انتاج اللغة على فك الرموز فحسب، بل كذلك على عمليات استدلالية تقوم على استراتيجية المؤول وتوظيف القدرات البشرية العامة "[11]. إذن هنا يكمن سر اللغة ليست مجرد تعابير وإحالات تمثيلية أو قوالب إيحائية في علاقة الأشياء بكلماتها، بل هي حياة وصناعة وآلة مجردة ترى في المعنى حركة دائمة وغير ثابتة، فحياة اللغة هي إبداع توليفات جديدة كما كان يقول بروست في رواية عن الزمن الضائع، لم يكن المهم فيها البحث عن الزمن أو الذاكرة، بل كان يتضمن لغة جديدة، تكشف ما لم يكن متمثلا في تلك اللغة كالتعلم، فحسبه ما يثير الاهتمام حقا هو ليس الحديث عن اللغة والبقاء فيها، فهذه ميزة اللسانيات القديمة، فالمسألة المهمة في الأمر هو التعامل مع العلامات في تلك اللغة، كيف تؤسس لحياة أخرى من خلالها نحو الإبداع والاختلاف والتلاقي الغير قصدي، حيث تأخذ في الشروط المتعالية للفكر كتعلم لا كتعليم أو معرفة، فالعلامات هي صور ما تتلاقى خلالها الأشياء بمضامينها خارج نطاق التمثل " فملاقاة العلامات هي ما يفعل الفكر و يدفعه إلى إنتاج المفاهيم "[12] ، نتيجة للشدة والعنف الذي يداهم الفكر في كل لحظة تبدي الأشياء كعلامات .

دولوز جرب هذا التلاقي في كتاباته، إذ يقول " حتى بالنسبة للمؤلفين الذين كتبت عنهم، سواء تعلق الأمر بهيوم أو سبينوزا أو نيتشه أو بروست أو فوكو، فإنك لم تكن تتناولهم كمؤلفين، أي كموضوعات للتعرف، أنك كنت تجد فيهم أفعالا للفكر بدون صورة، أفعال جامعة وساطعة في آن واحد، تجد فيهم ذلك الصنف، وتلك الالتقاءات الاقترانات التي تجعل منهم مبدعين قبل أن يكونوا يسمحون بذلك أبدا، كنت تلتقي فقط بأولئك الذين لم ينتظروك لتحقيق لقاءات داخل أنفسهم، لم ينتظروك لتحقيق لقاءات داخل أنفسهم، لم تجد المبدعين سوى أولئك الذين ينتظروا مجيئك"[13] هذا ما يجعل تجربة دولوز في الحياة بمثابة أدب، ليس فقط على مستوى التنظير بل حتى في التطبيق والممارسة، فما الاختلاف واللغة وملاقاة العلامة سوى مراحل جسدت في حياته، فالاهتمام بمفكرين مغمورين وبالأدب و السياسة يعبر عن اختلافه مع أشكال الصور التقليدية، كما أن المهمة الإبداعية للفلسفة قد فتحت هوامشا ومواطنا جديدة كالفصام والسياسة الصغرى والجغرافيا، ممارسا جذاميره القائمة على الترحال والهروب كنموذج حيوي. هكذا حاول دولوز أن يؤسس لمفهوم العلامة على اختلافه مع التصورات التقليدية، فلا هي كما تصورتها بنيوية دي سوسير، ولا كليانية شومسكي، إذ هي ما يومض و ما يستدعي الملاقاة.

5 . خاتمة:

لقد كان الأهم مما عرض في فكر وأدب دولوز كثيرا هو ليس في إبداعه لمفاهيم وتصورات جديدة، بل في منحه إمكانية التفكير، وجواز الخروج من قبضة التاريخ واللغة ومقولاتها، بنقده وتجاوزه كل أشكال التمثيل والتطابق، إذ أسس لعهد جديد في سؤاله عن ماهي الفلسفة ؟، فكان الجواب اكثر من إجابة عن سؤاله، بل كان تأسيسا لمشروع فكري برمته، قال عنه زميله فوكو أن هذا القرن سيكون دولوزيا بامتياز، فكان بالفعل كذلك. إن قيمة دولوز تظهر باقتحامه مواطنا لم يعهد التقليد الأدبي واللغوي أن ساءلها يوما أو حاول أن يتجاوزها بفعل الصورة الفكرية التي عاهدها و تأسس عليها، محدثا انشطارا كبيرا إذ لم تعد الذات قادرة على استعاب الفكر ولا الإجابة عن تمخضاته، فلم يعد الفكر خطا مستقيما ولا تاريخا عموديا ينظر إلى الأشياء في تموضعها في العالم، و لاعلاقة الكلمات بأشيائها، إن اللغة التي أسس لها دولوز هي حياة وديناميةـ هي زئبق ما إن حاولت القبض عليه انفلت منك إلى أمكنة اخرى، عكس ما سعت إليه الأدبيات المركزية، إن هذا الانفلات و الهروب من التاريخ هو ما اعطى اللغة شكلا جديدا ومختلفا وقد جسد هذا الهروب بالاهتمام بمواضيع مختلفة يعكس قيمة الأدب الحقيقية التي حاول تأسيسها، وقد جسد ذلك في التحليل النفسي والسينما والفن والسياسة ومستعملا كذلك بعض المصطلحات من الفيزياء كالكتلة والذرة والجيولوجيا والجغرافيا والخطوط، أي النظر إلى الأشياء من الوسط لا في أصولها وضد كل أشكال العودة، هذا الوسط هو مبدأ فكر دولوز و قد سماه دولوز بالجذمور الذي هو خلف عكس الجذر، أي ينبت مرة أخرى و في مكان آخر.

6 . الهوامش :

[1] - جيل دولوز، (2007)، بروست و الإشارات، تر: حسين عجة، دار أدب فن للثقافة و الفنون للنشر، مصر، ص19.

[2] - Gilles Delleuze, (1997), Dialogues, éditions Flammarion, paris, p43.

[3] - حوار مع جيل دولوز، (1991)، الفيلسوف المترحل، مجلة العرب و الفكر العالمي، بيروت، العدد الثالث عشر و الرابع عشر، ص210.

[4] - Giles delleuze, (1980), Felix Guattari : milles plateaux, capitalisme et schizophrénie 2eme Editions de minuit, p36.

[5] - عادل حدجامي، (2012)، فلسفة دولوز عن الوجود و الاختلاف، دار توبقال للنشر، الدار البيضاء، المغرب،ط1، ص221.

[6] -Gilles delleuze, Mille plateaux. Capitalisme et schizophrénie, op, cit, p13.

[7] - جيل دولوز، (2009) المثقفون و السلطة، تر: عبد الجليل بن محمد الأزدي، المطبعة والوراقة الوطنية ، مراكش ، المغرب ، ط1، ص72.

[8] - Gilles delleuze : mille plateaux, op, cit, p19 .

[9] - Gilles delleuze : mille plateaux, op, cit, p 111.

[10] - Gilles delleuze, (2006), Proust et les signes, quadriage P U F, 3ème éditions, Paris, P 10.

[11] - آن روبول، جاك موشلار، (2003)، التداولية اليوم علم جديد في التواصل، تر: سعد الدين دغفوس، محمد الشيباني، المنظمة العربية للترجمة بيروت، لبنان، ط1، ص25.

[12] - عادل حدجامي، فلسفة جيل دولوز عن الوجود و الاختلاف، مرجع سابق، ص116.

[13] - جيل باركلي، (1999)، حوارات في الفلسفة و الأدب، تر: عبد الحي أزرقان، أحمد العلمي، أفريقيا الشرق، بيرو، لبنان، ط1، ص35.